الرواية تسابق التاريخ

استلهام التاريخ في الأدب

قديمة هي علاقة الأدب بالتاريخ، ويظلّ السجل التاريخي عبر العصور ملهم الثقافات، وخزّانا أثيرا يستقي منه الروائيّون أعمالهم، ينهلون منه حوادث شكّلت منعطفات هامّة في مرحلة من مراحله أو أكثر، يتّخذونها متكآت لهم ينطلقون من خلالها إلى عوالمهم الروائيّة الشاسعة، يبنون عالما متخيّلا على أساس نقاط علام لهم، بحيث يهندسونها بطرائقهم الخاصّة وأساليبهم المبتكرة، حتّى لتكاد تنافس التاريخ المفترض، أو المدوّن، وتتقدّم باعتبارها تاريخا لا تخييلا، وهنا قوّة الخلق والابتكار والتخييل. في هذا الملفّ الذي ننشر جزءا منه بالاتفاق مع مجلة "الجديد" مقالات تفتح الباب للتنقيب في سبل استلهام الروائيّين لاعمالهم وقائع من طيات التاريخ أو عتماته، وتتقصى المقالات كيف نسج الروائيون بصياغاتهم الخاصّة تلك الوقائع، وذلك من خلال عدّة دراسات تخوض في العلاقة بين الرواية والتاريخ، وأساليب الروائيّين ومغامراتهم، والكيفية التي بلوروا وفقها أعمالهم وممارسة الإسقاط على الراهن، والدفع إلى الاعتبار من الدروس التي يشتمل عليها هذا التاريخ، بنوازله وكوارثه، أو بمحطاته المفصليّة التي رسمت مسارات أزمنة تالية عليها. هل أصبح الروائيّ مؤرّخ العصر الحديث؟ إلى أيّ حدّ نجح الروائيّون بكتابة تاريخ متخيّل مبنيّ على وقائع تاريخيّة معلومة؟ هل يأتي الاشتغال على التاريخ من باب الهروب من الواقع أم لمحاولة فهم هذا الواقع أكثر فأكثر؟ يغامر هذا الملف بتقديم إجابات عن العديد من الاسئلة المتصلة والناجمة عن علاقة الرواية بالتاريخ وانشغال الروائيين بهذه الموضوعة، وتضيء المقالات المنشورة هنا جوانب أساسية من العلاقة الدرامية بين الرواية والتاريخ، وحول طبيعة التجديد الذي يلازم التاريخ روائيّا، وكيف أنّ الرواية التاريخية تتحوّل إلى روايات إبداعية تنفتح على آفاق جديدة على أيدي حائكين؛ حكّائين، ماهرين يجيدون اللعب في هذا الميدان الثريّ، الساحر والشائك.

العلاقة بين عالمين

زياد الأحمد
كاتب سوري

نبدأ بالتفريق بين التّاريخ والتأريخ: فالتأريخ بالهمز: هو الكتابة عمّا حدث أمّا التّاريخ فهو إعادة قراءة ما حدث، وإعادة كتابته بصورة أخرى أقرب إلى الحقيقة التاريخيّة ومن هنا كان الإشكال بين الرواية والتاريخ وليس التّأريخ (بالهمز) لأنّ الأديب يقرأ الأحداث بعينين: الأولى واقعية والثانية تخييلية ويعيد كتابتها في بنية فنية.

الرواية مصدرا تاريخيا

بما أن الرواية تتناول ظواهر اجتماعية، وكل ظاهرة اجتماعية هي ظاهرة تاريخية كما يقول باختين، نستطيع القول بإمكانية اعتبار الرواية مصدرا غير تقليدي للتاريخ؛ لأنّها الأقدر على التغلغل في طيات المجتمع وخبايا النفوس والأقدر أيضاً على إنطاق المسكوت عنه في الخطاب الثقافي والسياسي والاجتماعيّ العام.

> فمن خلال تتبعنا لها عالمياً وعربياً، وجدنا من ينسبها في الغالب إلى الروائي الأميركي ستيفن كراين برواية «شارة الشجاعة الحمراء»، ولكن تكامل العناصر الفنية فيها تنسب إلى والتر سكوت الأسكتلندي

وكثيرون من ذهبوا إلى أن الرواية هي كتابة التّاريخ غير الرسمي أو التّاريخ المنسي، فهي التي تتغلغل في تفاصيل ينساها ذلك التّاريخ الذي ينشغل بتدوين الأحداث الكبيرة والأسماء العظيمة، وينسى تداعيات تلك الأحداث على الأرض والبشر الضحايا، الذين يعيشون في الظل بعيدا عن شموس قيادة الحدث، كما أنّه يدون حياة تلك الشخصيات المرمية على هامش الحياة والتاريخ وأعمالها، وما كان لنا أن نعرفهم لولا الرواية .وهذا ما أكده كارلوس فونتيس حين قال "أعتقد أن الرواية تمثل الآن تعويضا للتاريخ، إنّها تقول ما يمتنع التّاريخ عن قوله.... نحن كتاب أميركا اللاتينية نعيد كتابة تاريخ مزور وصامت، فالرواية تقول ما يحجبه التّاريخ" (مجلة الكرمل العدد 18).

ولا ننسى أن المؤرخين كانوا يتعاملون مع التّاريخ على أنّه نوع من الأدب، ويؤكد قاسم عبدة قاسم في مقالته "التاريخ والرواية" (مجلة العربي العدد 557) بأن العلاقة بين التّاريخ والرواية هي علاقة تكامل واعتماد متبادل، فالرواية هي وثيقة للمؤرخ الذي يريد أن يفهم مجتمعا في حقبة معينة، والرواية التي لم تكتب بقصد أن تكون تاريخاً تظل من أهمّ المصادر التاريخيّة لمعرفة النظام القيمي والأخلاقي، والعادات والتقاليد والمشاعر والأحاسيس ورؤية الناس لدورهم وعلاقتهم بالآخرين داخل مجتمعهم وخارجه. فضلا عن أنواع الملابس والطعام ورأيهم فيما يدور حولهم من أحداث وفي من يحكمونهم، وهي كلها أمور لا يجدها الباحثون في المصادر التاريخيّة التقليدية التي كتبت بقصد أن تكون تاريخا ولا يمكن لباحث أن يزعم أنّه فهم مجتمعا في فترة تاريخية ما دون أن يكون عارفا بآدابه وفنونه ومن بينها الرواية بطبيعة الحال.

ولهذا اعتبر الروائي الفرنسي بلزاك نفسه مؤرخ العصر، وإميل زولا هو مؤرخ للحياة الاجتماعية في القرن التاسع عشر، ونجيب محفوظ يؤرخ للقاهرة في الأربعينات، وكذلك عبدالرحمن منيف في مدن الملح، ثمّ في أرض السواد يؤرخ للجزيرة العربيّة والعراق. كما يمكن للرواية أن تكون مصدراً من مصادر التاريخ، ويمكن للتاريخ أن يكون مرجعا للرواية ومنهلاً تستقي منه موضوعاتها، ومكوناتها كما تؤكد سليمة عذراوي أنّ هناك ارتباطاً فطرياً بين التّاريخ والفنّ الروائي، إذ أنّ كليهما يتضمن سرد الأحداث بشكل قصصيّ، ولوجود هذه العلاقة بين الفن والتاريخ اتّجه الكتّاب إلى قراءة هذا المصدر الثري، وهضم صوره وصياغة موضوعاته صياغةً حيّةً نابضةً لتغدو وسيلةً للتعبير من خلالها عن أنفسهم باعتبار أنها ذوات تحسّ وقلوب تنبض.

هذا التداخل والتكامل بين الرواية والتاريخ دفع النقاد إلى التمييز بين كتابة التّاريخ والرواية التاريخيّة والرواية الأدبية، فالرواية التاريخيّة تشترك مع الرواية الأدبية في وجود بنية تاريخية تتأسس عليها (أشخاص وفضاء وشخوص كما في الواقع) لكنّ الرواية التاريخيّة تنطلق من ذوات وأحداث حقيقية وتشكل جزءاً من التّاريخ.

ولعلّ منبع الإشكالية بين التّاريخ والرواية كما يرى مفيد نجم (صحيفة العرب العدد 10353) يأتي من دلالة المصطلح الذي لا يقيم أيّ تمايز بين الرواية التاريخيّة التي تقوم على سرد وقائع وأحداث جرت في الماضي متتبعة في سردها التسلسل الزمني الطبيعي، والرواية التي تتخذ من التّاريخ فضاءً لها مستخدمة بذلك أدوات الخطاب التخييلي

كما يفرّق نجم بين الروائي والمؤرخ بقوله "ليس على الروائي أن يقوم بدور المؤرخ إذ لكل منهما أسلوبه ولغته في التعامل مع الواقع والأحداث، كما أنّ الزمن الروائي هو زمن تخيلي قبل كلّ شيء؛ على الرغم من محاولة الكاتب الواقعي أن يخلص للواقع من خلال تمثّله ولكن وفق ما تمليه رؤيته إليه وحاجات الخطاب المسرود، بينما يبقى المؤرخ أسير الحدث لغة ومنهجاً، وإذا كان التّاريخ هو ما كان فأنّ الرواية هي ما يمكن أن يكون".

وإذا رجعنا إلى جورج لوكاتش في كتابه "تاريخ الرواية" رأينا أنّه يعرّف الرواية التاريخيّة بأنّها رواية تاريخية حقيقية؛ أي رواية تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق للذات، "فهي عمل فني يتخذ من التّاريخ مادة له؛ لكنها لا تنقل التّاريخ بحرفيّته بقدر ما تصوّر رؤية الفنان له وتوظيفه لهذه الرؤية للتعبير عن تجربة من تجاربه أو موقف من مجتمعه يتخذ من التّاريخ ذريعة" كما يرى عبدالحميد القط في كتابه "بناء الرواية" (ص 23).

مسيرة الرواية التاريخية

لعلّ الإجابة عن تساؤلات تلك العلاقة الإشكالية بين الرواية والتاريخ تتوضح من خلال متابعة سيرورة ما عرف بالرواية التاريخية ومضامينها.

فمن خلال تتبعنا لها عالمياً وعربياً، وجدنا من ينسبها في الغالب إلى الروائي الأميركي ستيفن كراين برواية "شارة الشجاعة الحمراء"، ولكن تكامل العناصر الفنية فيها تنسب إلى والتر سكوت الأسكتلندي (1771 –1832) أبي الرواية التاريخيّة وأشهرها رواية "إيفانهو" (1819) و"الطلسم" (1825) وقد كتب أكثر من 55 رواية جسّد فيها التّاريخ الأسكتلندي بطريقة فنية أكثر تأثيراً من كتب التّاريخ الجافة، حتى ساد اعتقاد الكتاب والباحثين على أنّ روايات سكوت أقرب إلى الحقيقة التاريخيّة من كتب المؤرخين ثمّ سار على نهجه بالورليتون وجورج إليوت. وإلى بلزاك ينسب فضل إدخال العادات والتقاليد إلى الرواية التاريخيّة. وانتقل تأثير سكوت إلى أوربا كلّها فكتب في فرنسا ألكسندر ديماس الأب (1802–1870) التّاريخ الفرنسي ابتداء من عصر لويس الثالث عشر حتى عودة الملكية وتبعه في فرنسا فكتور هيجو فكتب "نوتردام دوباري" (1831) و"كاتر فان تريز" (1873) ومن ثمّ انتقل اللون الروائي التاريخي إلى سائر الآداب العالمية وكانت "الحرب والسلام" لتولستوي من أعظم الروايات التاريخيّة.

أما القصة والرواية التاريخيّة عند العرب فعُرفت في كتابات سليم البستاني وجورجي زيدان وأنطون فرح ويعقوب صروف وأمين ناصر وغيرهم من الجيل الأول، فقد كتبوا التّاريخ في سياق حكايات تكون أكثر تسلية وتشويقا، وقد قدّم جورجي زيدان 23 رواية تاريخية (1861– 1914) سماها "روايات تاريخ الإسلام" والرواية عنده وسيلة لتقريب التّاريخ وانتُقد زيدان بافتقاد روايته للحقيقة التاريخيّة وتزييفه للتاريخ الإسلامي، كما اتّهم من قبله والتر سكوت بتزييفه للتاريخ الأسكتلندي، وهي تهمة يعاني منها أكثر كتاب الرواية التاريخيّة حيث يتهمون بالتزوير والتشويه والعمالة.

ثمّ تبعهم الجيل الثاني، ومنهم علي الجارم الذي قدّم أعمالاً تاريخية تهدف إلى التعريف ببعض الشعراء العرب؛ كابن زيدون وابن عباد وأبي فراس الحمداني والوليد بن يزيد. ومحمد فريد أبوحديد الذي عاد إلى ما قبل الإسلام ليستمد منه أعمالا روائية كعنترة والمهلهل والملك الضلّيل.

يمكن للرواية أن تكون تاريخاً (غرافيكس «الجديد»)

العلاقة بين التاريخ والرواية أكثر من وطيدة وأكثر من جدلية فهما ينتميان لمنظومة حكائيّة واحدة يستحيل فصلهما، لا تاريخ بلا فعالية سردية روائية ولا رواية بلا فضاء تاريخيّ، يغذّي أحدهما الآخر على نحو أكيد وأصيل وفعّال ومنتج، فالتاريخ ركيزة أساسيّة تختزن تجارب وحكايات وشخصيات وأزمنة وأمكنة وخبرات لا يمكن التغاضي عنها أو إغفالها، حين يريد الكاتب لعمله الروائيّ أن يحصل على الخصب المطلوب والحجاج القادر على إقناع المتلقّي بصدق ما يروي، ليس الصدق التاريخي الواقعي الاجتماعي الأخلاقي بل الصدق السردي الفني الجمالي الذي يخلق إحساساً في منطقة التلقّي بأهمية ما يروى لها وفائدته، إذ أشار كثير من الروائيين الكبار إلى ضرورة هذه العلاقة وخطورتها في ميدان الإبداع الروائي مؤكّدين أن لا مناص من استثمار التاريخ روائياً، على ما في هذه المحاولة الاستثمارية من أخطار محدقة لا بدّ للروائي أن يتحسّب لها ويتفادى ما وسعه ذلك مغبة الوقوع فيها، فعامل الوعي وحساسية الاستبصار السردي هما من أشدّ العوامل الواجب حضورها في توظيف التاريخ روائياً كي لا يقع الروائي في حالة التنازل للتاريخي على حساب السردي الروائي، وهذه قضية في غاية الدقّة والخطورة لأنّ ثمّة خيطاً دقيقاً جداً بين التوحّل والتورّط في التاريخي بلا منقذ، والعبور من فوقه نحو التخييليّ بلا حدود، فينبغي أن يكون التاريخيّ في الروائيّ أداة ووسيلة وليس هدفاً وغاية للوصول إلى الكيان السردي الروائي المطلوب.

وجهان ووجهتان

محمد صابر عبيد
ناقد وشاعر عراقي

رواية التاريخ رواية مقصديّة ومصلحيّة تبتغي إيصال رسائل أيديولوجيّة في الدرجة الأساس لا يعنيها مطلقاً أن تكون فنيّة جماليّة، وراويها يتوجّه نحو هذه الغاية بما يمتلك من إمكانات على تحشيد قوّة الحادثة، وأسطرة الشخصيّة، وتوسيع حجم الفضاء السرديّ، لأجل تمكين الرؤية من بلوغ مراميها على أفضل سبيل ممكن ومتاح ومناسب، لذا لا يألو راوي التاريخ جهداً في استثمار طاقة المتخيّل على نحو ما كي يرتفع بروايته إلى المقام الذيّ يريد، ولكن في حدود ضيّقة ومحسوبة بدقّة متناهية، إذ لا يوجد تاريخ واقعيّ حقيقيّ ينقل الأحداث التاريخيّة الواقعيّة كما جرت فعلاً نقلاً فوتوغرافياً حرفياً صافياً ونقياً، بل تعتمد رواية التاريخ وتدوينه على وجهة نظر الراوي "المؤرّخ" ومرجعيته المنهجيّة في طبيعة المرويّ وتحولاته وقضاياه، وفي انتمائه لما يرويه سياسةً وعقيدةً ورؤيةً، وهو غالباً ما يخضع لأيديولوجية معيّنة لها أهداف وغايات ومقاصد خاصّة سواء أكانت هذه الأيديولوجيا ذاتية أو موضوعية، فيسخّر لها ما يمتلك من أسلوب تعبيريّ وصناعة خبريّة روائيّة لتحقيق ما يصبو إليه من صورة سردية تستجيب لمنطلقاته وطموحاته، ولا تتطابق ضرورةً مع ما جرى فعلاً على أرض الواقع.

وهذا ما يفسّر اختلاف الروايات التاريخيّة حول حادثة تاريخيّة واحدة تتباين رواياتها بين راوٍ وآخر، بحسب المنهج التاريخيّ الذي يعتمده كلّ منهما في انتخاب زاوية الرؤية التي يسرد الحدث منها، واللقطات المحدّدة المنتخبة التي يلتقطها ويعنى بها العناية الكاملة من بين كلّ لقطات الحادثة كما جرت فعلاً، ومقدار الضوء الذي يسلّطه على أجزائها وبناياتها وطيّاتها وظلالها واحتمالاتها، وحجم العناية التي يوليها لقسم منها على حساب القسم الآخر، حتى ليبدو وكأنّ الراويان يرويان حادثتين مختلفتين تمام الاختلاف مع أنّ الحادثة واحدة.

الرواية بوصفها فناً سردياً متخيّلاً على هذا النحو لا تبتعد كثيراً عن التاريخ من حيث اعتمادهما على مرويّ/ رسالة يقوم على وجهة نظر الراوي، لكنّ راوي التاريخ يتلاعب ويتصرّف بالحدث الواقعيّ وفق رؤية تخدم منهجه في التعبير والتدليل والتصوير، في حين يشتغل الروائيّ داخل فضاء متخيّل يستعير التقاطات وعلامات وإشارات ومعطيات في سيرته الذاتية والاجتماعية والثقافية والرؤيوية في مرجعيتها الواقعية، ويسرّبها بذكاء محسوب داخل نسيج متخيّله كي ينجح في صناعة نصّه الروائيّ على النحو المطلوب، ولا يمكن قطعاً استبعاد السيرذاتي التاريخي من أمام قاطرة العمل الروائي السائرة على سكّة التخييل، وليس من المصلحة الفنية مثل هذا الاستبعاد إن حصل لأنّ الروائيّ يكون حتماً أكثر براعة في رواية وتدوين ما يخصّه وما مرّ به وجرّبه أفضل ممّا يستعيره من تجارب أخرى أو يصنعه في مخيّلته، ومن ثمّ يعشّق ذلك بأسلوبيته الخاصة مع تجربة الرواية ليصوغ نسيجاً سردياً خاصاً تشتبك فيه ملامح من التجربة السيرذاتية مع فضاء التجربة الروائية في عالمها التخييليّ.

> راوي التاريخ يتلاعب ويتصرّف بالحدث الواقعيّ وفق رؤية تخدم منهجه في التعبير والتدليل والتصوير، في حين يشتغل الروائيّ داخل فضاء متخيّل

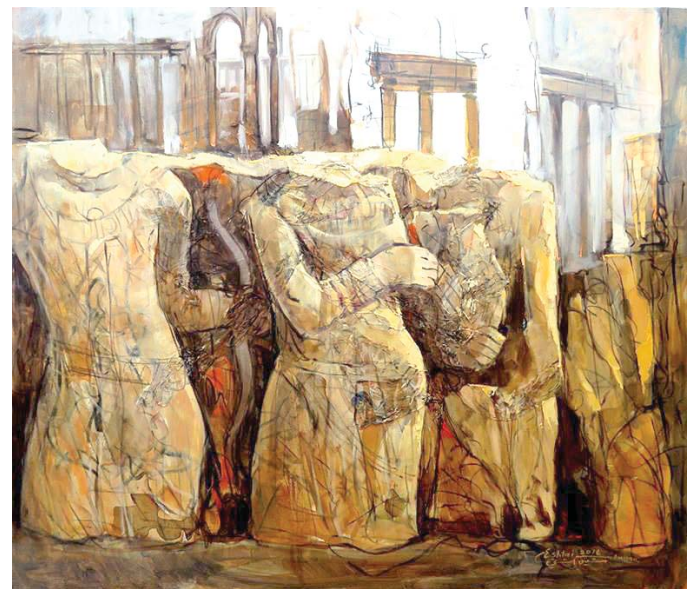

لوحتان لشفيق أشتي